ثقافة الخلفاء الفاطميين والأدب الفاطمى

للأستاذ عبد العزيز مرزوع
المدرس بالمدارس الثانوية الأميرية

على الرغم من تلك الظروف الجامحة الراجحة التى عصفت بالثقافة الفاطمية، نلمح فى تضاعيف الآداب العربية نماذج من الآداب المصرية فى أيام الفاطميين، تدل على ما كان فى القاهرة والفسطاط من حياة وثابة، وشعر رائع، ونثر ناضج، وبحوث عميقة منتجة فى أنواع العلوم والفنون، وعلماء كانوا يضربون فى أنواع الثقافة بأوفر سهم، فلا يجد علماء بغداد ودمشق وشيراز وقرطبة إلا الاعتراف بهم، والترحيب بثقافتهم، والحذر من إثارتهم. فما هى العوامل الفعالة التى أدت إلى هذه النتائج؟

مما لا شك فيه أن ثقافة الخلفاء الفاطميين أكبر هذه العوامل، لأن الناس على دين ملوكهم، والخلفاء العبيديون وأمراؤهم كانوا من ذؤابة العرب، وإن لم يكن فى النسب إجماع على ذلك، ففى الثقافة، والمولد، والمنشأ، والمربى ما يؤيد ذلك. لهذا نجد للكثير منهم أقداما راسخة فى العربية، وبصرا بالأدب، بل نجد منهم من كان يرسل الشعر جيداً جزلا نبيلا فى روعة ووقار، فيذكرنا بامرىء القيس، ويزيد بن معاوية وابن المعتز، وأبى فراس، وسأزجى بين يدى إخوتى نماذج تؤيد ما ذهبت إليه.

من أدب المعز: حدثتنا كتب الأدب أن «الخليفة المعز» أول خلفائهم المصريين كان يتقن فنونا من العلم والأدب، وأن له شعرا يمتلك القلوب بروعته، وآية ذلك قوله فى الغزل - وتدل على أن له قلبا كان يخفق بذكر الغانيات، وأنه كان يستحسن الجناس. وهى من مجزوء الكامل:

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر فى المعاجر[1]
أمضى وأقضى فى النفو س من الخناجر فى الحناجر
ولقد تعبت ببينكم تعب المهاجر فى الهواجر[2]

وذكر الثعالبي فى (يتيمة الدهر) قوله وقد مات له ابن فى العيد وهو من المنسرح .

نحن بنى المصطفى ذوو محن يجرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأنام محنتنا أولنا مبتلى وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم طرا وأعيادنا مآتمنا !!

وقد نسبت هذه الأبيات أيضا إلى (الخليفة العزيز بن المعز) وهو فى هذا المقام الذى يبعد فيه التصنع ، تدل على صدق شعوره بالنسب الفاطمى ، وعلى المرارة الفاجعة التى لم يطق معها صبرا للاحقة الاحداث لتلك النبعة الطاهرة حتى فى الأعياد ، فاكتفى بنفثات من ذلك الشعور المكبوت !

من أدب العزيز . وكان (العزيز) حازما فصيحا مغرما بتشجيع الفنون والآداب ، ومن دلائل توفيقه أنه وجد فى وزيره الوفى (ابن كلس) خير مستشار لتنفيذ أغراضه الثقافية ، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت إحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، ومع ذلك جعلها أعيادا وأعراسا ، وقدر الشعب وفاءه عند وفاته واحتشدت طوائفه للتعزية ، وأكثر الأدباء من رثائه ، والاشادة بذكره .

ومما يدل على شدة التياعهم وأن هول المصاب وجلال الموقف عقد ألسنتهم أنهم عندما أرادوا رثاءه أفحموا ، فقام صبى من أولاد الأمراء الكتاميين ، وفتح باب التعزية ، وأنشد «من الكامل»

أنظر إلى العلياء كيف تضام ومآتم الأحساب كيف تقام !

(١) المعاجر الخمر ، وأمضى أكثر مضاء وحدة .

(٢) الهواجر واحدتها هاجرة وهى شدة الحر وقد ذكر هذه الابيات كتاب «النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٩» .

خبرني ركب الركاب ولم يدع للسفر وجه ترحل فأقاموا !!

فلم يكد ينتهى من إنشادها حتى تنفس الشعراء الصعداء ، ثم نهضوا كأنما فكوا من عقال ، فأنشد كل مرثيته ، وكانوا يزيدون عن المائة .

وذكر صاحب شذرات الذهب أن من وفيات سنة ٣٨٦ هـ - توافق ٩٩٦م وفاة العزيز بالله وأن له أدبا وشعرا ، وأنه اختط جامع القاهرة ، وبنى قصر البحر [1] ، وقصر الذهب [2] ، وجامع القرافة [3] .

لتميم بن المعز ، وتميم هذا هو أخو الخليفة العزيز وابن الخليفة المعز . كان شاعرا فاضلا يهتز للأدب اهتزاز الكريم إلى الندى ، ولم يل الخلافة ، لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز ، وقد شهد له الأدباء بأنه كان أنضج أولاد المعز .

(١) نزهة فى النيل : ومن إحدى لياليه أنه ركب ليلة للنزهة فى النيل ، فمر ببعض النوافذ المشرفة على النهر ، فسمع جارية تغنى - من الكامل -

نبهت ندمانى بدجلة موهنا والبدر فى أفق السماء معلق
والبدر يضحك وجهه فى وجهها والماء يرقص حولها ويصفق

فاستحسنه وأخذ منه الطرب كل مأخذ ، فما زال يستعيدها ويشرب حتى

---

(١) (جامع القاهرة) هو جامع الحاكم ، و (قصر البحر) هو القصر الغربى كما فى المقريزى ج ٢ ص ٢٧ وكان موضعه البيمارستان المنصورى ، ومستشفى قلاوون للرمد يشغل جزءا منه الآن ، وكل المساكن التى تجاوره الي الخليج ، وكان يعرف بقصر البحر وبالقصر الغربى ومدخله كان من البحر المنسوب لهذا القصر

(٢) قصر الذهب . قال المقريزى هو قاعة الذهب وهى إحدى قاعات القصر الكبير الشرقى وكان يدخل اليه من باب الذهب ، ومن باب البحر أيضا ، وموضع هذا القصر اليوم مجموعة المبانى القائمة خلف مدرسة النحاسين الاميريه بشارع القصرين بين شارع بيت القاضى وحارة بيت القاضى (يراجع المقريزى ج ا ص ٣٨٥)

(٣) (جامع القرافة) يعرف اليوم باسم حوش أبى على وهو في الفضاء الفسيح بين جبانة سيدى عقبة ومصر القديمة (راجع المقريزى ج ٢ ص ٣١٨) وقد أشارت به السيدة تغريد أم العزيز نبنى بالقرافة الكبرى

انصرف وهو ذاهب اللب، فلما أصبح قال يعارض ما سمع - وهما من الخفيف -

أطلع الحسن من جبينك شعرا فوق در من وجنتيك أطلا
وكأن العذار خاف على الور د جفافا فمد بالشعر ظلا

ولم يقصد أن يعارض البيتين السابقين إلا فى المعنى ، ولو شاء المعارضة التامة لاتفق بيتاه مع بيتى الجارية بحرا وقافية فوق المعنى .

(٢) ومن تشبيهاته الجميلة الرائعة قوله يصف آخر الليل - وهو من البسيط -

كان بقايا الليل والصبح طالع بقية لطخ الحكل فى الأعين الزرق

(٣) وقد أبدع فى وصف يوم الفراق ، وإليك ما أورده صاحب « يتيمة الدهر » من الطويل :

وما أم خشف[1] ظل يوما وليلة ببلقعة بيداء ظمآن صاديا
تهيم فلا تدرى إلى أين تنتهى مولهة حيرى تجوب الفيافيا
أضربها حر الهجير فلم تجد لغلتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفت له فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منى يوم شدت[2] رحالهم ونادى منادى الحى أن لا تلافيا

ومما يدل على تجلده لنائبات الدهر، وكتمانه وقع أحداثه قوله - وهو من الطويل

أما والذى لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما لأعلانها عندى أشد وآلم
وفى كل ما تشكو العيون أقله وإن كنت منه دائما أتبسم

ومازال (تميم بن المعز) بين مد الحادثات وجزرها حتى طاح به ريب المتون بمصر سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) فبكاه الأدب الغض ، والأباء الشامخ ، والكبت القاتل، وحضر الصلاة عليه فى بستانه أخوه الخليفة العزيز ، وغسله

---

(١) (الخشف) ولد الظبي ، و (البلقعة) الارض القفر ، و (والصادى) العطشان و (المولهة) التي حيرها الحزن ، و (الغلة) العطش الشديد ، و (الهجير) شدة حرارة التظهير ، و(الطاوى) الجائع

(٢) (شدت رحالهم) رحلو وفارقوا

القاضى الأكبر محمد بن النعمان فقيه الشيعة ومفتيها ، وكفنه فى ستين ثوبا ، وصلى عليه بالقرافة وسنزجى بين يدىء القراء الكرام شيئا مما كان لوزرائهم من فضل للأخذ بناصر الأدب الرفيع

أشرت قبلا (١) إلى شىء من ثقافة الخلفاء الفاطميين ، ونماذج من آثار المعز والعزيز وأخيه تميم ، فى ظلال أيامهم الباسمه ، وألآن أذكر أن وزراء هذه الدولة كانوا من عوامل النهضة الأدبية فى تلك الدولة الخالدة .

١ - [منزلة الوزراء] ونظرة خاطفة إلى مكانة الوزراء فى أى عهد تجد أنهم كانوا ومازالوا من الملوك والأقيال والخلفاء عيونهم الساهرة ، وقلوبهم الخافقة ، وأيديهم التى يبسطونها للنعم ، أو يمدونها للنقم .

وسعادة الأمة وشقاؤها يتوقفان - إلى حد كبير - على الوزراء ، حتى فى العهود الدستورية ، لأنهم الوسطاء بين الملوك وشعوبهم : فهم إذا أدوا الأمانة حق أدائها بسطوا للملوك آمال الأمم وآلامها على حقيقتها ، ثم اقترحوا عليهم مافيه صلاحها الأدبى والمادى ، وحينئذ تسير شعوبهم قدما إلى الأمام تحت ظلال تلك الرعاية السامية.

وليس فى استطاعة الملوك مهما يبلغوا من السمو فى التفكير والارادة والقدرة أن يستغنوا عن وزرائهم ، وقد قال الحكما قديما : « أعرف الملوك يحتاج إلى الوزير ، وأشجع الرجال يحتاج إلى السلاح ، وأجود الخيل يحتاج إلى السوط وأحد الشفار ، يحتاج إلى المسن .

٢ - [وزراء الفاطميين] وقد عرف الفاطميون منزلة الوزراء وحاجتهم إليهم ؛ لتوطيد ملكهم ، وإسعاد شعوبهم وتثبيت عروشهم ، فألقوا على عاتقهم أعباء الأمور ، فكان منهم الكفء الصالح ومنهم الضعيف الطالح ،

(١) من كتاب ثقافة مصر الفاطمية لصاحبه وقد رجع المقال في هذا البحث الى الكتب الاتية صبح الاعشى ، الاشارة إلى من نال الوزارة ، وفيات الاعيان ، خطط المقريزى ، شذرات الذهب ، النجوم الزاهرة ، النكت العصريه ، الطالع السعيد ، بغية الوعاة .

ونجد أكثرهم فى « كتاب الاشارة إلى من نال الوزارة » للأديب المصرى الكبير « ابن منجب الصيرفى » أحد كتاب ديوان الانشاء فى عهدهم ، وقدكان وزراؤهم نوعين :

ا ـ فنى العهد الاول كان الوزراء غالبا من الادباء أرباب الاقلام ، وقد استمر ذلك نحو مائة سنة وسبع من السنين : أولهم « الوزير بن كلس » وآخرهم « الوزير المغربى » .

ب ـ وفى العهد الثانى تولى الوزارة أرباب السيوف ، وكان أولهم « بدر الجمالى » وزير الخليفة « المستنصر » سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣م) وإن لم يتقلد خلعة الوزارة رسميا إلا بعد ذلك بسنتين ، وآخرهم « صلاح الدين الايوبى » وفى العهد الاخير صار الوزراء يتمتعون بكل السلطات العسكرية والادارية والقضائية وسائر شئون الدولة وصاروا يلقبون من بعد المستنصر بأمراء الجيوش ، وعلى توالى الزمن قويت سلطتهم ، واستنسر بغاثهم : فصاروا يلقبون بألقاب الملوك مثل : (الملك الافضل للوزير رضوان بن الخشى) ، و (الملك الصالح للوزير بن رزيك) (والملك الناصر للوزير صلاح الدين الايوبى) ، ولكن الثقافة العربية ، والبحوث العلمية ، لم تخفق أعلامها ، ولم تتألق شموسها إلا فى العهد الاول : فقد كان الوزراء ومن إليهم من رجال الخلافة ممن لهم بصر بالادب ، يطربون للبحوث العلمية ، ويشجعون رجال الثقافة بكل ما يمتلكون من جاه ونشب ، وأكثر من نبغوا من الباحثين فى العهد الثانى كان نبوغهم قبسا من تشجيع الخلفاء أو الوزراء الادباء ، وقل من كان من وزراء السيف أديبا ، بل إن منهم من كان أميا !!

والوزير (ابن كلس) أظهر النماذج للوزراء أرباب الأقلام ـ فى العهد الأول ـ

والوزير (ابن رزيك) أبلغ مثل يذكر للوزراء أرباب السيوف ـ فى العهد الثانى ـ

(مرتب الوزراء) ونظرا إلى أن شمس الحرية لم تكن أشرقت على الكون إذ ذاك ، وأنه لم يكن يعرف إذ ذاك ما يسمى اليوم بحقوق الأمم فى التعلم ، أو ترقية مرافقها المختلفة ، نرى أن الكثرة الكاثرة مما كان يجمع من

الأموال كان ينفق على الملوك ، وهؤلاء يمنحون شطراً منه لوزرائهم ومايختص بحروبهم وعمالهم ، وقد كان من نتائج هذا أن مرتبات الوزراء كانت ترتقى إلى درجة بعيدة إذا وازناها بمرتبات الوزراء فى هذه الأيام !!

(وابن كلس) أول وزراء الفاطميين فى مصر كان مرتبه كما تقول شذرات الذهب ١٠٠,٠٠٠ دينار فى الشهر . وبعده أصبح الوزراء يتناولون مرتبا كهذا ، ويقول القلقشندى : كان مرتب الوزير هكذا :

المبالغ التى يقبضها من بيت المال	٣٠٠٠	دينار
وما يتناوله بحكم النيابة كان	١٠٠٠	»
والماهية الخاصة كانت	١٥٠٠	»
والمبالغ المخصصة لمائة غلام وبقية خدمه كان	٥٠٠	»
وما يعود عليه سنويا من إقطاعاته كان	٥٠٠٠٠	»
وبمجموع هذه المبالغ النقدية كان	٥٦٠٠٠	»
وهذه غير الحبوب التى كانت تبلغ من القمح والشعير	٢٠٠٠٠	أردب
ومن الغنم	٨٠٠٠	رأس لمطابخه

غير ما يحتاج إليه ويناسبه من الخلع ، وغير ما كان يتمتع به من جاه دونه كل جاه فى هذه الأيام ، بل إنه ربما طغى على نفوذ خلفائهم إذ ذاك !!

(الشعر فى ظلال وزرائهم) لاعجب أن يشجع الوزراء الفاطميون الأدب ، فإن خلفاءهم أسرفوا فى هذا السبيل - ولو أنه لاسرف فى الخير - وما كان تشجيعهم إياه إلا تلبية لهواتف نفوسهم ، وإشباعا لرغبات ثقافتهم مما كان من مظاهره تخليد شعرائهم وصورهم ، محفوفة بشىء من آثارهم الشعرية ، فإن تجد وزراءهم كالصدى الواضح للصوت المدوى ، فما ذلك إلا لأن الناس على دين ملوكهم ، فكيف إذا كانت طبيعة مراكزهم تحتم عليهم أن يراعوا كرامة منصبهم ، وأبهة خلفائهم ، ومنافسة أمثالهم فى الدويلات التى استكملت مثلهم فى العصر العباسى .

(مجلس العطايا) وحسبي أن أذكر الآن مظهرا من تلك المظاهر التي كانت وما زالت تملك على الناس أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم كانت (دار الملك [١]) من مناظر الخلفاء ، أسسها الوزير الأفضل بن أمير الجيوش سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) . فلما كملت حول إليها الدواوين من القصر ، وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سماه (مجلس العطايا) كان يجلس فيه .

وبعد (الأفضل) صارت (دار الملك) من متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، وما زالت شمسها في إشراق إلى آخر أيام الدولة الفاطمية ، ولم يكن الباعث على إنشاء دار الملك إلا تجلية عظمة المملكة ، وتفخيم أمر الخلافة .

وقد رأى القائد (أبو عبد الله بن فاتك) أن مجلس العطايا يكاد يكون اسما على غير مسمى ، فأمر بتفصيل ثمانية ظروف من الديباج الأطلسي . من كل لون ظرفان ، وجعل في سيفه منها ٣٥,٠٠٠ دينار ، في كل ظرف ٥٠٠٠ دينار ، وكشفا بوزنه وعدده و (شرابة) حرير كبيرة ، ومن هذه الظروف ستة فيها دنانير متساوية عن اليمين وعن الشمال في مجلس العطايا ، وعند مرتبة (الأفضل) بقاعة اللؤلؤة [٢] طرفان في أحدهما دنانير ، وفي الآخر دراهم جدد :

فالذي في اللؤلؤة لمن يستدعيه (الأفضل) إذا كان عند الحرم

وأما الذي في مجلس العطايا فللشعراء .

وذلك أنه لم يكن لأكثرهم فيما مضى مرتبات ، وإنما كان للمحسن منهم جوائز ، فرأى القائد أن يكون تشجيعهم مما بين يديه من الظروف ، وإذا انصرف الحاضرون سجل هذا القائد الخالد المبلغ بخطه في بطاقة ، ويقدم الظرف إلى الوزير (الأفضل) فيكتب عليه بخط يده « صح » ويعاد الظرف

(١) كانت على شاطىء النيل آخر عمارة مصر القديمة ، قرب المدرسة المعزية التي حل محلها الآن جامع الشيخ رويش آخر شارع مصر القديمة جنوبا

(٢) كانت قاعة اللؤلؤة مدخل شارع أمير الجيوش اليمنى تجاه مدرسة باب الشعرية .

ويختم عليه ، فلما استهل رجب سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) وجلس الوزير فى مجلس العطايا على عادته وحضر أخوته (الأجل المظفر) للتهنئة ، وجلس بين يديه ، وشاهد الظروف ، والقائد وأولاده وأخوه قيام على رأسه، تقدم الشعراء على ترتيب درجاتهم ، فلما انتهوا من إنشادهم أمر لكل منهم بجائزة !! وشاع خبر الظروف ، وكثر فيها القول ، واستعظم الناس أمرها وابتداعها فضوعف مبلغها ، لما رأى من آثارها !! ثم اتسع هذا الانعام بالصدقات التى جرت بها العادة فى مثل هذا الشهر للفقهاء والرباطات . .